نور العالم

" أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة "

(يوحنا 12:8)

William Henry Griffith Thomas (2 January 1861 – 2 June 1924)

ويليام هنري جريفيث توماس (2 يناير 1861 - 2 يونيو 1924)

(ويليام هنري) جريفيث توماس كان لاهوتيًا أنجليكانيًا ذا قناعة إنجيلية عميقة ، وراعيًا مثقفًا وعالمًا ومعلمًا فعالًا أثر في الحركة الإنجيلية في بريطانيا العظمى وأمريكا الشمالية بعمق. ولد جريفيث توماس في شروبشاير في بريطانيا عام 1861 ، وتحول إلى المسيح في سن السادسة عشرة ، وفي ذلك الوقت شرع في دورة دراسية صارمة (كان إلى حد كبير يدرس نفسه بنفسه باللغة اليونانية) وقد حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت من أكسفورد في عام 1906 . وأصبح مدرسا فيما بعد في جامعة اوكسفورد.

إن حجر الزاوية في المسيحية هو لاهوت المسيح. ولو سأل سائل: أين البراهين على أن المسيح هو ابن الله ؟ لكان الجواب بلا جدال: قيامته من الأموات، لأنه تعين ابن الله بقوة قيامته. ومع هذا فإنه توجد براهين اخرى لا تقل أهمية عن هذا البرهان تتطلب منا التأمل والروية ، ومنها البرهان الذي طالما أغفلنا أهميته الا وهو كلام المسيح نفسه. كثيرا ما نجد أن المسيح يستعمل اقوالا عن نفسه لا يمكننا أن نتفهم معانيها أو مراميها إلا إذا سلمنا بلاهوته. أما إذا لم يكن لنا هذا اليقين فإننا نحكم بأمر من اثنين: إما أن يكون خادعاً او مخدوعاً، وحاشا ان يكون كذلك.

في هذه الآية المقتبسة نجد المسيح يخاطب الجمع في الهيكل قائلا : « أنا هو نور العالم، تصور أن رجلا عاديا ينطق بهذه الأقوال فماذا يكون حكمك ؟ تقول إنه قول هراء وسخرية ما بعدها سخرية !! بل ضع هذه الكلمات على شفتي اعظم رجل شهدته الدنيا ، ثم لاحظ النتيجة المترتبة عليه ، أقوال تثير الضحك والاستخفاف، بل تصور أن سقراط أحكم جيله وقال : " أنا هو نور العالم ".. او دع بولس الرسول ، أو لوثر ، أو أى عقلية جبارة من معاصرى

جيلنا المشهورين مهما كانت أعماله الهائلة أو اختراعاته النافعة يقول : " انا هو نور العالم " ، ثم لاحظ كيف تسقط مكانته أمامك بمجرد أن ينطق بهذه الكلمة . ومع هذا فإن نجاراً قرويا هو الذي فاه بها ، و هذا القول الخطير لم يقلل مثقال ذرة من قوة كلامه أو مكانته.

وعلى هذا الاعتبار لا يمكننا أن نغفل أهمية كلامه لأنه المقياس المضبوط والمعيار الصحيح الذي تقاس عليه حياتنا وتصرفاتنا في هذه الحياة. بل هو الناموس الذي به نحاسب يوم الدين. هلم إذن نشحذ أفكارنا لنفهم أسرار هذه الكلمة: أنا هو نور العالم. إننا نجد فيها ثلاث نقاط جديرة بالملاحظة:

تصريح خطير

" أنا هو العالم ". بأي الوسائل يمكن أن يقارن المسيح بالنور؟ لنتأمل فيما يلى:

أولا: الإرسالية التي جاء لينجزها:

ما هو عمل النور؟ إنه يعلن الأشياء على حقيقتها، ويجعل في مقدور الإنسان إنجاز واجبات الحياة ومطالبها. هكذا جاء المسيح لينير العالم ، بل ليوضح للعالم أربعة أشياء :

(1) جاء ليعلن الله :

إن الخطية حجبت الله عنا ، وأصبح كل شيء ذا قيمة عملية نعرفه عن الله من قبيل الحدس والتخمين بل إن معرفتنا عنه تعالى كانت جزئية سطحية . وهنا يتم قول المسيح : " الله لم يره احد قط . الابن الوحيد الذي في حضن الآب و خبر"، " الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح ". إن الإنسان لفي احتياج إلى الله ، بل النفس البشرية لا تفتأ تصرخ طالبة الله. وهذا الاحتياج وتلك الصرخة لا تشبع إلا بالمسيح الذي هو النور، الذي جاء ليعلن الله للإنسان.

(٢) جاء ليعلن الإنسان على حقيقته :

قبل مجيء المسيح كانت الظنون تهيم على وجهها عن الإنسان فيما يختص بطبيعته واحواله . ففي العصور المتعاقبة والأجيال المتسلسلة قامت ظنون خاطئة عن الإنسان، كانت بعيدة كل البعد عن الحق ، فسلط عليها المسيح نوره الكشاف فظهر الإنسان كما هو : ضالا هالكا، خاطئا ، لا حول له ولا قرة . تصود حجرة مكنوسة نظيفة ثم اغلقت أبوابها ونوافذها اسابيع أو شهورا أو سنين . ثم تصور النور ينساب عند فتح هذه النوافذ إلى جميع اركانها . هكذا المسيح بناموس الحياة يفيض في مكامن النفس و افكار القلب بنوره القدسى ، وعندذ يعلن للإنسان مقياس الحياة السامية فتتضاءل مقاييس البشرية إزاءه ، وتضح للإنسان أيضا حالته في بعده و تيهانه عن الله . لما جاء المسيح وقفت أمام الإنسان لأول مرة كل أدناسه وارجاسه ، كل أدرانه و اوزاره في بشاعتها ورهبتها ، وواجهته آثامه بصورتها الفظيعة.

(3) جاء ليعلن السماء :

قبل مجيئه كانت الآراء والظنون تخبط خبط عشوائي عن حقيقة المستقبل وعلاقته بالحياة ، ومثل هذه التخمينات وقع في اشراكها من كانوا يتمسكون بالعهد القديم . لقد انسدل على المستقبل ستار كثيف ، فكانت أمنية البشرية الضاربة في بيداء الظنون والأوهام أن يأتي اليوم الذي فيه يوضع حد للمساوئ والآلام ويسود العدل والسلام. واليهود والأمم على السواء صعد صراخهم طالبين الخلاص وإكليل الحياة لكن لم يتحقق هذا الرجاء إلا بمجيء المسيح الذي ابطل الموت و انار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل ، ورد الإنسان إلى جادة الصواب موضحا له السبيل القويم إلى حياة سعيدة ينعدم منها كل ألم وعناء وتظللها السعادة والهناء ، ولكن ليس هذا ما جاء المسيح لينجزه . لأنه لو وقف عند حد إعلان الله في قداسته والإنسان في نجاسته والنعيم في سعادته لبقى الإنسان في شقاوته وتعاسته ، تحرك الآمال فيه كوامن الألم ، لأنه حبيس الشك ، سجين اليأس. لذلك:

(4) جاء المسيح ليعلن لنا الطريق إلى الله والسماء :

وبمجيئه قشع ظلام الخطية ومزق الستار الذي كان يحجب الله عنا مبينا لنا الطريقة التي بها ينجو الخطاة من وزر آثامهم ، فاتحا لهم الطريق المُعَبَد الذي يوصل إلى الحياة الأبدية. من هذا نرى أن إرسالية المسيح التي جاء لينجزها هنا إنما ليكون نور العالم. وهنا نتعرض للحقيقة الثانية في هذا التصريح الخطير.

ثانيا : العمل الذي أتمه :

لقد رأينا فيما سلف ما جاء ليعمله. وهنا تأمل في حقيقة ما فعل. قد رأينا ماذا يعمل النور - إنه يعلن ويوضح. والآن نبحث فيما هو النور في ذاته:

1- النور مجاني : إننا ندفع ثمنا لأغلب حاجيات الحياة وضروراتها حتى النور الصناعى ندفع له ثمنا . أجل ، إن نور الشمس هبة سماوية مجانية تغمر الكون بحرارتها و نورها وتوزع ضياءها على العالم أجمع لا فرق بين غني وفقير . هكذا نور الإنجيل المبارك جاءنا فضلا لا يطلب منا ثمنا من إذلال النفس و بذل الخصاصة في الأعمال الصالحة وجهد المستطاع من البر الذاتي ، لكنه بلا فضة و بلا ثمن.

2- النور حلو : وفي هذا يقول الحكيم : " النور حلو للعينين أن تنظر للشمس ". ما أعظم الفرق الذي يحدثه نور الشمس واحتجابه ! بل ما أعظم الإنشراح والسرور الذي تحس به في يوم مشرق الديباجة مفتر الثغر ا والإنقباض يستولي علينا في يوم عبوس مظالم ! وإذا ما احتجبت الشمس عنا فترة طويلة فما أعمق الفراغ الذي نحس بها ! وما أجمل التقدير الذي يتولد فينا لدى عودتها إلينا ! إن الرحالة (كين) ، الذي كان يرتاد المناطق القطبية قضي شتائين في تلك المناطق حيث تغرب الشمس لمدة ستة شهور . وعند انقضاء الستة شهور تسلق الدكتور (كين) قمة الجبل ليستقبل أشعة الشمس عند شروقها. ويصف هذا المنظر بكلمة قصيرة بليغة فيقول : «كنت متخذا اسلاك النور كعش مريح لى ، واحسست إذ ذاك أني أستحم في ماء معطر بفيض شذاه

في كل كياني بالبهجة والحبور». وهذا هو الحال معنا بالتمام إزاء شمس البر الذي يوزع أشعة الغفران والسلام والعزاء والرجاء فائضا فينا بفرح لا ينطق به ومجيد.

3- النور عام شامل : من مشارق الأرض إلى مغاربها، شمالا وجنوبا، هناك النور . وليس مكان على سطح الأرض إلا ويكتحل بنور الشمس ما لم يعيقه الإنسان . هكذا المسيح نور العالم . كان هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيا إلى العالم . هو للجميع بدون استثناء ، و ليس هناك من يستطيع أن ينتحل عذرا بعدم إمكانه التمتع بنوره.

4- النور ضروري : إن العالم لا يمكن أن يحيا بدونه فهو عماد الحياة البشرية والحيوانية والنباتية . كما أن الأزهار والأشجار والأعشاب لا تنمو إلا به. انظر إلى حديقة ليلاً في أيام الصيف ، ثم ألق عليها نظرة أخرى في الصباح تتأكد أنه لولا النور ما كان الجمال والبهاء والرواء . و بدون النور لا يمكن أن يسافر الإنسان، لأن من يسلك في الظلام يجُرُ على نفسه أوخم العواقب . وهذا ينطبق على الأمور الروحية إذ أن حياتنا الروحية ، و نمونا ، وجمال الخصال ، وحسن السجايا ، لا نكتسبه إلا من المسيح نور العالم.

وعد جليل

" من يتبعني لا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة. الظلمة. ما هي؟

1- ظلمة الخطية : هذا ما كان يعنيه (أشعياء) بالظلام الذي يغطي وجه الأرض والظلام الدامس الذي يغشى قلوب الناس ، وما كان يعنيه (متى) بالجالسين في الظلمة . وكل هذا رمز للخطية التي تشوه معالم الحياة فتطمس الفكر والبصيرة والذهن والقلب.

2- ظلمة الأحزان : الأحزان أياً كان نوعها: احزان المرض ، والفقر، والموت ، كلها نشأت عن الخطية .

كنت مسافرا من مدة على إحدى البواخر لأعبر المحيط الأطلنطي وإذا برجل وخط الشيب لحيته يبتدرني بقوله: «أترى خطوط الشيب وقد ارتسمت في لحيتي هذه؟ إن ذلك كان نتيجة حزن مفرط على بنت وحيدة زوجتها من رجل طيب ولكن المنية نشبت مخالبها في حياتها الغضة فراحت بين عشية وضحاها. لماذا هذا بينما عدد كبير ممن يعيشون عيشة الشقاء والرذيلة يبحثون عن الموت فلا يجدونه ؟، فأجبته أن ليس عندي جواب على هذا إلا أننا في هذه الحياة كمن يسري في ليل بهيم لا يعلم ما حوله حتى نصل إلى النهاية فينبلج نور النهار الأبدي ونرى الأمور على حقيقتها.

3- ظلمة الشك : إن المتاعب والشك تحلق فوق الكثير من الناس ، ولا يستطيعون لها حلا أو يعيرون جوابا . يتساءلون لماذا كل هذه، وكأنهم يقتحمون طريقاً من الأشواك. فإلى الذين عذبتهم هذه الثلاثة - الخطية والحزن والشك - نقدم الوعد المتضمن في هذه الآية الجليلة : نور الحياة نعم ، فمهما كانت ظلمة الخطية حالكة فإن

المسـيح يسـتطيع أن يقشـعها ومهما كانت الأحزان فإن المسـيح يسـتطيع أن يمزق اسـتارها . ومهما كانت غيوم الشك فإنه يستطيع أن يطاردها فيبددها ويهب نور الحياة لتابعيه وذويه.

* هذا النور في متناولنا دائما: مع أن الشمس لا تضيء علينا دائماً بسبب ظلمة الليل إلا أن المسيح شمس البر دائم الإشراق. وهو يريد أن يسكب علينا فيض هذا النور دائما، اللهم إلا إذا رفضناه.

* إنه كاف: في كل خطوة من خطوات الحياة تعترضنا الصعاب وتقف في وجوهنا المتاعب لكن في المسيح كفايتنا لأن قوته في الضعف تكمل.

* إنه لا ينطفئ. :كل الأنوار الأخرى تنتهى . حتى الشمس نفسها يوما ما ستغيب ولا تطلع فيما بعد. لكن الله إلهنا من الأزل إلى الأبد هو ، هو هو أمسـا واليوم وإلى الأبد. ذاك الذي أضـاء حياة هابيل وأخنوخ وموسـى و داود و بولس ويوحنا يضـيء حياة أولاده الآن . ويحاول الناس في عصـرنا هذا - كما حاول غيرهم قديما - أن يطفئوا هذا النور ، مثلهم في ذلك مثل من يحاول أن يجفف مياه المحيط.

شرط بسيط

" من يتبعني " . مع أن المسيح هو نور العالم ، إلا أنه ليس كل واحد يتمتع بهذا النور إلا من يتبعه ، وهنا نتساءل : ما معنى إتباع المسيح حتى لا تحرم من هذه البركة ؟

(1) يجب أن نؤمن بالنور ما دام لنا النور:

(يوحنا ١٢ : 36). وكما يجب علينا أن نوفي هذا الشـرط للتمتع بالنور الطبيعي هكذا الحال مع المسـيح، لكي نتمتع بنوره يجب أن نوجه قلوبنا نحوه. وعلينا أن نسـلم ذواتنا له بالتوبة، ونفتح له أبواب قلوبنا ليدخل بنوده فيبدد كل ظلمة، فنكون أبناء النور.

(2) يجب أن نسلك في النور:

هل نحن مكملين الشروط باتباعنا المسيح؟ لاحظ قول السيد " من يتبعني " . إن الأمر شخصي بين الفرد والمسيح. ليس من يتبع فلان أو علان أو الكنيسـة بل المسـيح. وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شـريرة ، (يوحنا ٣:١٩ و ٢٠) .. وهذا هو الخبر الذي سـمعناه منه ونخبركم به ان الله نور وليس فيه ظلمة البتة . إن قلنا إن لنا شركة معه و سلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق ، (١ يوحنا 1: 5و6). لا يوجد سبيل بين بين . وكما أنه في بعض البلاد لا يوجد غسق بين النور والظلمة، هكذا في العالم الروحي إما أن نكون في النور أو في الظلام . هل هناك خطية فينا تجعلنا نوصـد الباب دون المسيح والنور؟ اتخاف إذا جاء لكي يطهرنا من خطبة مدللة عزيزة علينا فنوصد كل النوافذ مثل ما يفعل النائم حتى يعاكسه النور؟

لننتبه لأنفسنا حتى لا يحول اى شى. بيننا و بين النور . إن قذى صغير قد تعمي العينين ، وقطعة صغيرة من النقود تحجب نور الشمس ، وخطية واحدة قد تحجب المسيح عنا . فيجب أن نسير في النور كما هو في النور ومهما يأتي علينا يكون خير. قد يهجم الظلام لكن نستطيع أن نقول : " إذا جلست في الظلمة فالرب نور لى " (ميخا7 :8).

" الرب نورى و خلاصى ممن أخاف، (مز ١:٢٧). وأما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد و ينير إلى النهار الكامل، (أمثال 4: 18).

ومهما اعترض طريقنا من عقبات فإننا سنتخطاها وندخل المدينة المكتوب عنها : " والمدينة لا تحتاج إلى الشمس والقمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد أنارها والخروف سراجها " (رؤ ٢٣:٢١) ." فهلم نسلك في نور الرب " (أشعياء 2: 5).

منقولة من كتاب أشهر المواعظ مع التعديل ترجمة الأخ واصف عبد الملك

الرب يستخدم هذه العظة لمجد إسمه

صفوت زكي سمعان